

استراتيجية الامتاع و الاقناع في بنية الحكم العطائية.

مقاربة سيميو لسانية .

الدكتور. دايري مسكين
جامعة د.مولاي الطاهر سعيدة

ملخص

و ان بد النص في ظاهره بنية لغوية لسانية ، لا تشير إلى أي حضور للمؤلف ، و لا تقيم له أي علامة تحيل اليه ضمن خطية الملفوظات Linéarité ، إلا أن الاقرار بهذا القول و الوقوف عند حدوده ، هو من سبيل الاعتراف بوجهة نظر تستبق الاستدلال العلمي ، الذي يفترض تقفي الخفي و الجلي قبل بناء الحكم ، و الذي تلزمه علميته الاعتراف بكل وجهات النظر الاخرى ، و بالخصوص تلك التي أحيطت بالقبول الواسع من لدن الأوساط العلمية.

و من الواضح أنه لا يتم فهم دلالات الخطابات الادبية إلا ضمن فضاء ثقافي و ديني و حضاري يستحضره القارئ ، و ينتعله من أجل بلوغ الدلالة و لذلك وجدنا أن المفاهيم السيميائية لمدرسة باريس أمست ذات قابلية للتحويل و التغير بفعل تفاعلها مع أجواء الاستكشافات العلمية و عوالم التجريب التنظيري و المصطلحي و هي في الحقيقة استراتيجية براغماتية ، نفعية تقوم على تفعيل كل ما بإمكانه خدمة تقفي الدلالات.

ان التلقي الواسع للحكم العطائية و استمرارية وجودها بين العامة و الخاصة يستوجب منا البحث عن المثيرات و العوامل المنتجة الامتاع و الاقناع عبر بنيات بنوية خواصها بساطة التركيب و ايجاز العبارة و براعة التمثيل و التصوير .

الكلمات المفتاحية: بنية لغوية لسانية – خطية – التلقي – التمثيل و التصوير – التجريد.

abstract

The big réception that surrounds - EL HIKEME EL ATAIA - is linked to data that go beyond linguistic competence -synthetic procedures ...- and which calls for other extra-linguistic and extra-semiotic skills, or the search for meaning is multiple like the multiplicity of the faces of speech.

key words

Linguistic structure - linear - receive - representation and photography - abstraction.

يبدو تحليل الخطاب من أبسط الممارسات اليومية، وأوسعها انتشاراً بين العامة و الخاصة، فكلنا يحلل وجريدته و رسائله ، و حواراته ، وكل ما يصل إلى حواسه من المحيط

الاجتماعي الذي يعيش فيه. فأَيّ استماع ، وأَيّ مشاهدة ، أو تذوّق ، أو قراءة...، لا يخرج عن كونه إجراء بحث دلالي ، وفاعلية تأويلية ، لا يحسن إنتاجها وتنظيمها غيرنا.

ولمّا كان التحوّل في ماهيات الخطاب ، وتنوّع تشكلاته ، وتعدّد وظائفه من أهم مواصفات الخطابات الحداثيّة، أمسى من العسير إخضاع تحليله إلى تنظيم مُتفق عليه، وبدا من الاستحالة جمع مختلف وجهات النظر، والرؤى التحليلية في بنية تصوّرية توليفية واحدة لكنّا نلفي في سيميائيات مدرسة باريس ما بوسعه التخفيف من حدّة هذا الإشكال ، بحيث لا يقتصر مفهوم الخطاب على نسق لغوي معيّن ، وإنّما ينفّتح مفهوم اللّغة في النظرية السيميائية على كل نسق لغوي دلالي لساني أو غير لساني، وهو الأمر الذي ينقل الإشكالية في التصرّ السيميائي من تعدّد أنساق العلامات اللغوية ، واختلاف أجناسها إلى معنى الخطاب بوصفه إجراء (procès)، يستدعي البحث في الملفوظ المُنتج من جهة ، والتلفظ المُنتج من جهة أخرى. مستهدفا البحث في نوع mode الإنتاج الدلالي من دون وصله لا بتاريخ الإنتاج ولا بحالات مُنتجه.

1. التلفظ وأنواع الكفاءات:

إنّ أيّ مُتلقي ، أو فاعل مؤوّل بلغه ملفوظ صدر عن فاعل متكلم ، يفترض كفاءة سيميائية ، ولسانية ، ودلالية ، وتركيبية ، تصل به إلى فهم الملفوظ ، وتمكّنه من تحديد مواقع م و م (المتلفظ و المتلفظ له). وثمة كذلك كفاءة أخرى فوق لسانية extralinguistique، تتمثّل في الكفاءة النفسية الاجتماعية السيميائية psycho-socio-sémiotique التي لها من الأهمية ما بوسعها تقدير مدى تأثير هذا الملفوظ على طرفي التواصل البيذاتي intersubjectif، وهو الأمر الذي يستوجب منا التمييز بين نوعين من الكفاءات:

- 1- كفاءة محايدة لا تبرح عالم الملفوظ المغلق.
- 2- كفاءة فوق لسانية extra-linguistique بالإمكان نعتها بالبرغماتية النفعية، تستقدم ما من شأنه بلوغ الدلالة.

إنّ الاعتراف بهذا التنوّع على مستوى الكفاءة، إنّما يُعطي من قدر المُسلّمة التي ترى استحالة وجود أي تواصل لغوي من دون وجود كفاءة تجمع بين طرفي التواصل، فهي تمثّل المشترك الذي يقيم وجوده أي رسالة لغوية، وفي هذا المعنى يقول الإمام الطبري: (...) فالمُخاطَب والمرسل إليه ، إذا لم يفهم ما خوطب به، وأرسل إليه، فحالة قبل الخطاب، وقبل مجيء الرسالة إليه وبعده سواء. إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئاً كان به قبل ذلك جاهلاً¹ وهذا يعني أنّ بلوغ الفهم لا ينفك عن وجود معرفة مشتركة يُسند إليها تركيب العلامات، وتفكيك شفراتها، وتأويل معانيها، الخ.

لكن الإشكال يبدأ مع التساؤل عن مدى مقدرة فاعل التواصل، ومدى مسؤوليته على إحداث الأثر على الفاعل المؤلّ، بحيث إذا كان المتلفظ سيّداً فيما يحيّته من ملفوظات، فهل يحتفظ بالسيادة كذلك على لاشعور الطرف الآخر ؟ وهل تحيط معرفته بالسياق السوسيوثقافي والتاريخي المتعلق بملفوظه، وبمُتلقيه، وبسيرورة التأويل؟

2. الفاعل و مبدأ المحايثة

إن مبدأ المحايثة Immanence هو العامل الوحيد القادر على منع أيّ تجاوز إلى خارج الملفوظ , ويقف دون أيّ عملية وصفية تتعلّق ببيت الرسالة أو تلقيها . فالمقصد لا يخصّ وصف أغراض السارد motifs , و استظهار التأثيرات التي يمارسها على القارئ , و إنّما المستهدف هو وصف السنن code الذي يتجلى بواسطته كل من السارد و القارئ انطلاقاً من دلالة السرد عليهما. فمن اللازم كما يرى بارت² الانطلاق من افتراض يرى أنّ بين الشخص و بين اللغة علاقة إشارية signalétique تجعل من المؤلّف فاعلاً sujet ممثلياً بالكلام plein , و من السرد موضوعاً ذاتياً لذلك الامتلاء

وهذا المعنى نفسه نلّفه في تصور ا.ج. غريماس³ للشخصية السردية الذي يقترح وصفاً و ترتيباً لها انطلاقاً مما يقوم به, وليس وفق ما هي عليه (في السرد) , و هذا ما يبرر نعتها بالعامل actant .

إنّ مبدأ المحايثة هو في ارتباط وثيق بمسألة الذاتية في اللّغة , و بالخصوص ذاتية بنفست التي ترى اللّغة محلّ البحث عن المتكلم وقدرته (ففي اللّغة و بها يجعل الإنسان من نفسه ذاتا , وهو يتوصّل إلى ذلك بتوخي بعض الصّيغ التي توفّر لها له اللّغة , و أولها الضمير " أنا " الذي يمثل استعماله الأساس الفعلي للوعي بالذات)⁴

و الذاتية تستدعي البيذاتية intersubjectivité , بحيث إذا توفّر في الخطاب دلائل تشير إلى "أنا " المتكلم فهناك مشيرات أخرى تدل على المخاطب "أنت"² و التساؤل الذي يستدعيه هذا المقام يكون حول امكانية استثمار عوامل فوق لسانية استثمارا نفعيا برغماتيا , لا يقف نقيضا لمبدأ المحايثة و إنما تفرد له منزلة العامل المسخر لبلوغ المعنى بأنجع الطرائق الموضوعية.

3. أثر العامل فوق لساني في المقاربة السيميائية:

إنّ الاعتماد على السياق الخطابي بأبعاده الزمانية و المكانية، ووصله بمختلف العوامل الثقافية، والاجتماعية، والدينية، الخ، تمثل العتبة الأولى في الإستراتيجية التأويلية لدى السّواد الأوسع من العامة. والمفاضلة التي تجنح إلى وضع مراتب لأنواع هذه التحاليل، لا ينبغي أن تقدّم الامتياز للمقاربات التي لا ترى معنى التناسق الخطابي إلّا في حدود الرؤية المحايثة للملفوظ – كحال النظرية السيميائية الغريماسية- وإنّما هناك دائماً بعض العوامل فوق لسانية وفوق سيميائية التي لها من الأثر على تشكّل الدلالة ما يلزمنا البحث في مدى إسهامها في إقامة التواصل، وتحقيق الإقناع، وإحداث ماهية الإبداع. فكلّمة "نعم" التي تصدر من قبل رئيس مُلتقى حين مخاطبته أحد الحاضرين وهو يرفع اليد، تدلّ على منحه الكلمة، ذلك لأنّ ثمة عقد كلام- كما يقول شارودو-⁵ يضع الرئيس في موضع صاحب القدرة على تفسير الحوارات ، و النقاشات ، والمداخلات، الخ. كما قد يختلف معنى الكلمة نفسها "نعم" في وضعيات خطابية مغايرة. وها هنا تتبدّى لنا ملحوظتان شديدتا الأهمية :

1- تمرّد العلامة اللّسانية عن سلطة المعاني المعجميّة، وانفتاحها على فضاء

الدلالة الواسعة، فالكلمة الواحدة، ذات الحيّز المكاني والصوتي المحدودين، قد

يتعدى مدلولها إلى جملة، وإلى خطاب، وإلى ثقافة بعينها. وهذا الذي يستلزم

حمولة معرفيّة تعين المتلقي من بلوغ الدلالة، وبالخصوص إذا تعلّق الأمر بالأثر الإبداعي.

2- ثمة نوع من الاتفاق الضمني ما بين طرفي التواصل (التلفظ) يسمى بـ: العقد التصديقي Contrat fiduciaire وهو اتفاق غير مُعلن، لكن له حضور في ممارساتنا اللغوية، وله عظيم الأثر في تشكيلات أنواع التلقي، بحيث ما الذي يُلزم الحاضرين في الملتقى بالامتنال إلى توجيهات رئيس الملتقى، وإلى الاستماع إليه، وطلب التدخل، الخ؟ ومن اللازم التفريق في هذا المقام بين نوعين من العقود، العقد التصديقي الملفوظي المتعلق بالقيم التداولية الموجودة داخل الملفوظ، وعقد تصديقي تلفظي يستهدف تحقيق نوع من الاتفاق التصديقي ما بين م وم ويتعلق بـ "حقيقة" الملفوظ/الخطاب⁶.

4. صورة عاملي التلفظ في الملفوظ/ الخطاب:

ليس هناك أحسن سبيلاً في عرض المعاني المجردة من الأسلوب التصويري Figuratif، وبالخصوص، إذا تعلّق الأمر بمتلقي ذي أفق معرفي محدود، ومعارف لا تبرح مجال تجاربه البسيطة. ونعتقد أنّه السبب الذي يبرّر اختيار الحكم العطائية لهذا الأسلوب، بحيث اتخذته مطيّة في عرض بعض القيم العقائدية، والمثل الأخلاقية التي بقيت أمداً طويلاً لا تتعدّى حدود خطابات الفلاسفة، والفقهاء، والمتصوّفة، وعلماء الكلام، دون غيرهم.

يقول ابن عطاء الله السكندري في إحدى حكمه:

لا ترحل من كَوْن إلى كَوْن فتكون كحمار الرّحى , يسير و المكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل عنه . ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوّن , (وأنّ إلى ربّك المنتهى) . وانظر إلى قوله – صلى الله عليه و سلّم – "فمن كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله و رسوله, و من كانت هجرته إلى دُنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه". فافهم قوله –عليه الصّلاة و السّلام – و تأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم...والسّلام⁷.

فإذا كان هذا المخاطب، والمرويّ له، والمتلفظ له، غير معلن عن هويته في ثنايا هذا الخطاب. فإنّ المخاطب معلوم نسبه وكلمه، وأخلاقه، وحتى مراحل حياته، والفضل كلّهُ إنّما يعود إلى كتب التراجم التي حفظت لنا أهم معالم شخص م عبر سيرورة الزمن. والظاهر أنّ التعرّف على هوية م له أثر عظيم في تلقي الحكم العطائية بحيث من ذا الذي يرتاب، في حكم العالم، العارف، الفقيه، الملقّب بتاج الدّين،...، ابن عطاء الله السكندري المالكي؟*

وها هنا يتجلى العقد التصديقي الضمني على المستوى التّلفظي، الذي من العبث تجاهل فاعليته في بناء تلقي م، وبالخصوص أحكامه حول حقيقة الخبر و كذبه، على الرغم من طبيعة هذا العقد الافتراضي فوق اللساني extra-linguistique.

وأما الذي يحدّ من غياب م، بل ويثبت وجوده فهي الدلائل اللسانية التالية:

الأفعال المسندة إلى م والتي تجلت في:

لا ترحل...

فتكون...

ارحل...

(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى)

انظر...

افهم....

تأمّل....

كنت...

ومهما اختلفت صيغ هذه الأفعال (أفعال أمر، مضارع) فإنّها تشير كلها إلى فاعل هو م الذي يتجلّى بوضوح في ضمير المخاطب (...رَبِّكَ...).

إنّ م يوظّف من الصّور، والعبارات ما لا يخفي فهمه على م، فمثّل "حمار الرّحى" من الأمثال ذات الانتشار الواسع بين عامة الناس وخاصتهم بحيث يبدو من الغرابة جهل مثل هذا المثل. وإيراده في هذه الحكمة يحمل معنى الإشارة إلى ذاك المتلقي العربي بالخصوص. وأما استضافة النصّ القرآني، والحديث الشريف فهو إجراء أسلوب يحمّل معنى البرهان على صحّة الحكمة ويسهم في الوقت نفسه على تحديد صورة المتلقي م على أنّه ذاك المؤمن بكتاب الله وسنة رسوله.

من شأن صيغة النّهي التي يوظّفها م أن تعيننا على رسم بعض ملامح م (لا ترحل...) الذي تتبدّى فيه الصفات التالية:

سميع للنّصيحة

مريد التدرّج إلى مراتب الإيمان

صدّيق لمقولة الناهي (المخاطب)

ففي حالة افتراض عدم اتصاف م بهذه النعوت هل يُبقي المخاطب على إستراتيجيته الخطابية؟

إنّ صورة (حمار الرّحى) تبدو أنجع تصوير لتيمة (thèmes) الجهل، والغفلان، وعدم التدبّر في أسباب الوجود، لكن الظاهر أنّ توظيف هذه الصورة يتجاوز هذا المعنى التصويري إلى معنى آخر تمثّل في بناء علاقة تقابلية بين صورة السلوك البهيمي من جهة، والسلوك الإنساني من جهة أخرى. ذلك لأنّ ليس ثمة من طريقة أحسن إبلاغاً من مقابلة الشيء بنقيضه.

المصادر و المراجع

1 - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، 2001، ط1، ج1 .

2- R.Barthes,Analyse structurale des récits in l'aventure sémiotique.,Paris ,1985.éd.seuil

3- A.J.Greimas, sémantique structurale, recherche de méthode,Paris,1996,éd.Larouse.

4- E. Benveniste, problèmes de linguistique générale I , éd.cérès,tunis,1995.

5 - P. Chareaudeau, Langage et discours, élément de semiolinguistique,éd.Hachette.

Paris,1983 .

6 -A.J. Greimas et J. Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage.

7. - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، شرح وتحليل: دار الفكر، ط3، دمشق، 2007، ج1 .

- هو الإمام الملقب بتاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري المالكي، المتوفى * عام 709هـ، وهو من أعيان القرن السابع الهجري، درس الفقه، والتفسير، والحديث، واللغة، والأدب على شيوخ له في مصر، ودرس كذلك على يد عالمين جليلين هما الشيخ أبو عباس المرسي، والشيخ أبو الحسن الشاذلي.

ودرس في الأزهر على يد مشاهير العلماء أمثال: تقي الدين السبكي، والإمام القرافي.

الإحالات

01- أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، 2001، ط1، ج1، ص. 11.

02- R.Barthes,Analyse structurale des récits in l'aventure sémiotique.,Paris ,1985.éd.seuil p.195

03- A.J.Greimas, sémantique structurale, recherche de méthode,Paris,1996,éd.Larouse.p.126

04- E. Benveniste, problèmes de linguistique générale I , éd.cérès,tunis,1995,p.258.

05- P. Chareaudeau, Langage et discours, élément de semiolinguistique,éd.Hachette. Paris,1983,P.54.

06- A.J. Greimas et J. Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p.71.

07- محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، شرح وتحليل: دار الفكر، ط3، دمشق، 2007، ج1، - ص.514.